

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١)

هنا ﴿يَهْدُونَ﴾ حالاً واستقبالاً قد تختص بالأمة الإسلامية، كما ﴿وَمَنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١) وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «هذه أمتي بالحق يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون» (٢).

هذا، ومن أهدي هداة الأمة الإسلامية هو علي عليه السلام وكما يروى بطرق عدة أن هذه الأمة «هم علي وشيعته» (٣).

ذلك وقد تهدي الآية بطليق نصها أن ﴿أُمَّةً يَهْدُونَ﴾ تشمل الأمة الهادية العادلة من كل أمة، وهم من هذه الأمة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ إذ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٤):

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٩.

(٢) الدر المنثور ٣: ١٤٩ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريح في الآية قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: هذه أمتي وفيه عن قتادة في الآية قال: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأها: هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمَنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وفيه عن الربيع في الآية قال: قال رسول الله ﷺ: إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل.

(٣) السيوطي في الدر المنثور (٣: ١٤٩) أخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة يقول الله: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] فهذه التي تنجو من هذه الأمة، والكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي (٥٢) بسند قال علي كرم الله وجهه وهم أنا وشيعتي، والقندوزي في ينابيع المودة (١٠٩) عنه عليه السلام: وهم أنا ومحبي وأتباعي، وابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة (٩٥) عنه: «هم أنا وشيعتي» كما في ملحقات إحقاق الحق ٣: ٤١٣ وفيه ١٤: ٣٤٤ عن البدخشي في مفتاح النجا (٤٢) وأخرج زادن عن علي كرم الله وجهه مثله: «هم أنا وشيعتي» والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٢٠٤ بسند عن ابن عباس في الآية قال: يعني من أمة محمد أمة، يعني علي بن أبي طالب ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩] يعني: يدعون بعدك يا محمد إلى الحق ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] في الخلافة بعدك، ومعنى الأمة العلم في الخير نظيرها: ﴿إِنَّ إِتْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً﴾ [التحل: ١٢٠] يعني علماً في الخير، معلماً للخير.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧) :

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ يَهْدِنَا الْحَدِيثَ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ (١) (٢) وعذاب الاستدرج - وهو طلب الدرج في حزب الشيطان خطوة خطوة - إنه أخطر عذاب يوم الدنيا، ومن ظروفه ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ إمهالاً في بوتقة العصيان ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ مكين لا ينجو منه ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أبداً.

وهكذا «إن الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها» (٣).

أجل ف ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٩٦) مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ (٤) ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾ (٥) ﴿فَلَا

(١) سورة القلم، الآيتان: ٤٤، ٤٥.

(٢) القول الفصل حول الاستدرج مدرج في تفسير آيته الأخرى في «القلم» فراجع.

نور الثقلين ٢: ١٠٥ في أصول الكافي عن سفيان بن السمط قال قال أبو عبد الله عليه السلام : وهو قول الله تعالى : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] بالنعمة عند المعاصي، وفيه عن سماعة بن مهران قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] قال: هو العبد يذنب الذنب فتجدد له النعمة معه تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار عن ذلك الذنب، وعنه عليه السلام مثله بزيادة: هو مستدرج من حيث لا يعلم.

(٣) المصدر عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام : وفيه عن روضة الكافي خطبة طويلة مسندة إلى أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها: ثم إنه يأتي عليكم من بعدي زمان ليس في ذلك الزمان شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وآله - إلى أن قال -: يدخل الداخل لما يسمع من حكم القرآن فلا يطمئن جالساً حتى يخرج من الدين، ينتقل من دين ملك إلى دين ملك ومن ولاية ملك إلى ولاية ملك ومن طاعة ملك إلى طاعة ملك ومن عهود ملك إلى عهود ملك فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون وان كيده متين بالأمل والرجاء.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٦، ١٩٧.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٩٥.

تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ  
أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١﴾ .

وهؤلاء المستدرجين من حيث لا يعلمون هم من المعنيين بـ ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ  
بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١١٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ  
صِنْعًا ﴿١١٤﴾ ﴿٢﴾ .

فـ «كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه، وكم من مستدرج يستر الله  
عليه، وكم من مفتون بثناء الناس عليه» و«إنه من وسع عليه في ذات يده فلم  
ير ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً» (٣) .

﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١١٤) :

ألم ينظروا إلى عقليته البارة المنقطعة النظير ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ  
مِنْ جَنَّةٍ﴾ فقد صاحبهم صاحبهم عمراً من قبله بكلّ رزانه عقل ورحابة صدر  
ورصانة قدر: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤) .

كيف وقد صاحبكم صاحبكم طوال أربعين عاماً أميناً متيناً عاقلاً لحد  
سميته محمد الأمين، فالآن تتهمونه بالجنة لأنه يأمركم بالمعروف وينهاكم  
عن المنكر (٥) و﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ هويته في النذارة الرسالية بعقلية  
الوحي الصارم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ (٦)

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٥ .

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤ .

(٣) المصدر عن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام والثاني فيه عن نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام .

(٤) سورة يونس، الآية: ١٦ .

(٥) الدر المنثور ٣: ١٤٩ عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله قام على الصفا فدعا قريشاً فحذا  
فحذا من قريش فقال: يا بني فلان يا بني فلان وكان يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح  
حتى قال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت حتى أصبح فأنزل الله هذه الآية .

(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٧٠ .

- ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ (١).

ذلك لأن الرسائل الربانية تعارض الجاهليات والهمجيات المجنونة، وهذه طبيعة الحال أن المجانين يحسبون من يخالفهم في جنتهم مجانين وهم أولاء عقلاء! ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾؟ وهكذا يدق عليهم الله دقائق المتواترة عليهم ينتبهون عن غفلتهم ويستيقظون عن غفوتهم، إيقاظاً لهم بإيعاظ بالغ من تحت الركاب الطامّ المسيطر على فطرتهم وعقولهم.

ولأن الإنسان بين عاقل ومجنون، وهم صاحبوا المجانين وصاحبوا صاحبهم هذا الذي يقولون إنه لمجنون، فهل رأوا فيه جنة كسائر المجانين، الخالطين في أقوالهم وأفعالهم، المتناقضين في كل حالاتهم؟

ولم يدع أحد من هؤلاء أنه رأى فيه ما كان يراه في المجانين، بل ولا أنه رأى وزان ما رآه منه بين سائر العقلاء، إذا فهو فوق العقلاء بعقلية الوحي بعد العقلية الإنسانية الناضجة التي كانوا يعترفون بها فيه في العمر الذي لبث فيهم قبل الرسالة.

وعلى «ما» هنا تعني مع النفي - نفيًا لجنة - الموصول، فتعني: الذي بصاحبهم من جنة، مجازاة في قولة الجنون، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ جنته المدعاة ما هي جنة، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ينذر العقلاء عما يناحر العقل والفطرة الإنسانية فضلاً عن عقلية الوحي، فلو كانت به جنة كما تدعون فما هي مادتها بين مواد الجنة التي هي معروفة عن المجانين؟

ذلك، والقرآن يحث دوماً على التفكير، مادحاً المفكرين، قادحاً غير المفكرين، الذين لا يستعملون عقولهم: ﴿فَأَقْصِبْ قَلْبَكَ لِعَلِّمْهُمَ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢)

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٨٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(٢)</sup> .

أجل و«تفكيرك يفيدك الإستبصار ويكسبك الإعتبار»<sup>(٣)</sup> و«التفكير حياة قلب البصير»<sup>(٤)</sup> و«الفكر مرآة صافية»<sup>(٥)</sup> و«طول الفكر يحمد العواقب ويستدرك فساد الأمور»<sup>(٦)</sup> و«من أسهر كنه فكرته بلغ كنه همته»<sup>(٧)</sup> و«ركعتان خفيفتان في تفكير خير من قيام ليلة»<sup>(٨)</sup> و«لا عبادة كالتفكير في صنعة الله»<sup>(٩)</sup> .

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١٠)</sup> :

وإذا لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليعرفوا أنه لا إله إلا هو وأن محمداً ﷺ رسوله .

ذلك ، ولأن التعرف إلى العقلية الرسالية له بابان اثنان ، ١ - التفكير في حالات الرسول وحالاته وفعالاته وكما عنها رسل المسيح رداً على الناكرين : ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِنَّكَ إِلَيْنَا لِمَرْسُلُونَ﴾<sup>(١٠)</sup> حيث وجهوهم إلى التربية

- (١) سورة النحل، الآية: ١١ .
- (٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠، ١٩١ .
- (٣) غرر الحكم ١٥٧ عن الإمام علي عليه السلام .
- (٤) الكافي ١ : ٢٨ الامام الصادق عنه عليه السلام .
- (٥) نهج البلاغة ١٠٩٠ .
- (٦) غرر الحكم ٢٠٨ عنه عليه السلام .
- (٧) غرر الحكم ٢٨٨ عنه عليه السلام .
- (٨) ثواب الأعمال ٦٨ عن النبي ﷺ .
- (٩) أمال الطوسي ١٤٥ / ١ عن الإمام علي عليه السلام .
- (١٠) سورة يس، الآية: ١٦ .

الرسالية الباهرة فيهم، ثم النظر في ملكوت السماوات والأرض حيث يوصل إلى معرفة الله، وضرورة الرسالة من الله، والرجوع إلى الله، ثم إذا تفكروا في صاحبهم وجدوه رسولاً من الله يحمل تفاصيل هذه الأصول وسائر الفروع.

ومن ثم ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ فليتقوا ربهم قبل فجأة الأجل ﴿فِي آيٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾: بعد الله إلهاً وبعد محمد ﷺ رسول الإله، وبعد القرآن كتاب الله؟

والدلائل القاصعة قاطعة كل شك وريبة عن ساحة هذه الرسالة التوحيدية.

والحديث يعم الحادث الذات والصفات والأفعال، وحادث الذكر الذي يتحدث عنه، فالقرآن ورسول القرآن حديثان ذاتاً وذكراً، والله تعالى حديث يتحدث عنه في كافة الحقول المعرفية فإيماناً أو نكراناً، فكما أن آيات الله حديث يتحدث عنها في الاستدلال بها على الله، كذلك الله وهو رأس كل حديث: ﴿فِي آيٍ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايِنِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

ذلك، والملكوت في حقل النظر المعرفي لها درجات أعلاها هي المختصة بالله، وهي الحيطه العلمية الحقيقية: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢) وأدناها هي العامة لكل السالكين إلى الله على درجاتهم فدرجاتها، وهي المأمور بها هنا وفيما أشبه أن ﴿يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فيهما تدرعاً بها إلى معرفة الله كما هنا، وأوسطها هي الخاصة بالرعييل الأعلى من السابقين والمقربين المكرمين كمحمد ﷺ والمحمديين من عترته المعصومين، ثم من دونهم كإبراهيم

(١) سورة الجاثية، الآية: ٦.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٣.

الخليل في مثل ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾<sup>(١)</sup> حيث تطلب كيفية الإحياء وهي ملكوت فعل الله، وقد أوتيها قدر ما يمكن لمن سوى الله على قدر المعرفة والكيان الإبراهيميين، وفي قصة رؤية الكوكب والقمر والشمس: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

فالخلق كله بمراتبه مجال فاسح للنظر في ملكوته للحصول على معرفة الله بدرجاته، والنظر المأمور به إليه عبارة عن تحديق حدقة العقل والفترة إليه إبصاراً إلى كيانه أزلية أم حدوثاً، ثم من الحدوث إلى المحدث وهو الله تعالى شأنه العزيز<sup>(٣)</sup>.

أجل إن كتابي التكوين والتدوين التشريع هما من كاتب واحد، يدل عليه التجاوب التام بينهما، فكما ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِن تَفٰوُتٍ فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾<sup>(٤)</sup> ثم أَرَجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ<sup>(٥)</sup> كذلك كتاب التدوين ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِن عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(٥)</sup> ثم ولا نجد بين الكتابين أنفسهما اختلافاً لو أننا أجدنا النظر واعتبرنا بالعبر.

إن التوازن المقصود ملحوظ في خلق الرحمن حين نتفكر في ملكوت

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

(٣) للاطلاع الوسع على مراتب الملكوت راجع إلى تفسير آية الأنعام، وفي الدر المثلث ٣: ١٥٠ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: رأيت ليلة أسري بي فلما انتهينا إلى السماء السابعة نظرت فوقي فإذا أنا برعد وبرق وصواعق قال: وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، قلت من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت ما هذا يا جبرئيل؟ قال: هذه الشياطين يحرجون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب.

(٤) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

(٥) سورة النساء، الآية: ٨٢.

السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، ملحوظ في بناء الذرة كما هو ملحوظ في بناء المجرة، ولو اختل قيد شعرة لفسد الخلق عن بكرته، حيث نظر بالقلب المفتوح والبصيرة المفتوحة إلى ملكوته.

ذلك، وأما الملحدون المصلحيون الجدد، أصحاب الاشتراكية العلمية، فهم مسوخ مشوهو الفطر، بل هم ناكروها عند ما يلجئون إلى تقبل أحكامها، فعند ما يصعدون إلى الفضاء وينزلون على القمر فيشهدون مشاهد الكون الرائع أمامهم، ومشهد الكرة الأرضية معلقة في الفضاء هتفت فطرهم ما الذي خلقها وعلّقها في فضاءها، ولكنهم حين هبوطهم إلى الأرض أمام إرهاب الدولة، وإرهاب المصلحيات المادية، يقول أحدهم إنه لم يجد الله هناك، كاتما إلحاح فطرته وإلماع فكرته أمام ظاهرة من ملكوت السماوات والأرض! أجل و:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَ هَادِي لَمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ :

وهو لا يضل إلا من ضل على علم وتجاهل، فإضلاله هو إدلاله فيما هو فيه، ومدّه في ضلاله باستدراج ﴿فَكَأَ هَادِي﴾ له، إذا ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذا هو جانب من إضلاله تعالى أنه يكلهم إلى أنفسهم دون مدّ إلى الهدى، وهم ممدودون إلى الردى جزاءً وفاقاً، فإنهم هم الذين أغلقوا أبصارهم وبصائرهم، وعطلوا قلوبهم وعقولهم، فغفلوا عن ملكوت السماوات والأرض وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فيذرهم - إذاً - في طغيانهم يعمهون، وفي غيهم يترددون.

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْتَلُونَكَ كَذَلِكَ حَفِيٌّ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ :

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿١٨٧﴾﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ



مُنْهَهَا ﴿٤٤﴾ (١) - ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٢)  
 ﴿السَّاعَةِ﴾ في هذه الثلاث وفي الأربعين الأخرى هي من أسماء القيامة الكبرى، وأصل الساعة هو الزوال والضياع ويقال لجزء خاص من الزمان «ساعة» لتصرّمه وضياعه فهي - إذًا - حين تضيع الكائنات وتزول عن كينونتها الحالية، فالساعة هي منتهى الحياة الدنيا منذ قيامة الإمامة إلى قيامة الإحياء.

و﴿مُرْسِنَهَا﴾ هي ثباتها، ثباتاً لذلك الضياع والزوال، وبداية ليوم القيامة إمامة وإحياء (٣).

وكل هذه الآيات الثلاث والأربعون تؤكد على اختصاص علم الساعة بالله، إجابة عن كافة الأسئلة عنها:

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ حيث رباني بهذه التربية القمّة الرسالية، ولكنه ما علمني إياها لا اختصاصها بحضرته تعالى، وليس فقط ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ بل و﴿لَا يَجْلِيهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ تجلية الإعلام عند وقوعها، وتجلية التحقيق لها، فلا حظّ لي على محتدي الرسالي العظيم والتربوي العميم من هذه الثلاث، فلا علم لي بها أبداً ولا تجلية لها أبداً.

﴿ثُقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ علماً وإعلاماً وتحقيقاً وتحققاً، ثقلاً لا

(١) سورة النازعات، الآيات: ٤٢-٤٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٣.

(٣) الدر المنثور ٣: ١٥٠ - أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة وأنا شاهد فقال: لا يعلمها إلا الله ولا يجليها لوقتها إلا هو ولكن سأخبركم بمشاريطها وما بين يديها من الفتن والهرج فقال رجل: وما الهرج يا رسول الله ﷺ قال بلسان الحبشة: القتل وان تجف قلوب الناس ويلقى بينهم التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً ويرفع ذو الحجار ويبقى جراحة من الناس لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً. وفيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: تقوم الساعة على رجل أكلته في فيه فلا يلوكها ولا يسيغها ولا يلفظها وعلى رجلين قد نشرأ بينهما ثوباً يتبايعانه فلا يطويانه ولا يتبايعانه.

تتحمله السماوات والأرض وحتى من شاء الله ألا يصعق عندها: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup> ومنهم هذا النبي العظيم الذي هو أثقل من السماوات والأرض، فقد ﴿تَقَلَّتْ السَّاعَةَ عَلَيْهِ عِلْمًا وَإِعْلَامًا وَتَجَلِيَةً بِكُلِّ أبعادها، وأما غير ﴿مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فهم فانون عند الساعة فكيف يعلمون مرساها؟

ومن ثقل الساعة في السماوات والأرض وطئتها ووقعتها القارعة حيث تنفطران: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ مهما جاءت أشراتها، فإن أشراتها تشير إلى قربها دون إشارة إلى مرساها<sup>(٣)</sup>.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ وما أنت بحفي عنها ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والحفي من الحفاوة هو الرحمة والحنان: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾<sup>(٤)</sup>، وهو العلم، فهو يائيا التنزع في الإلحاح في المطالبة ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا﴾<sup>(٥)</sup> أو في البحث عن تعرف الحال، وأصله من أحفيت الدابة جعلتها حافياً أي منسجج الحافر والبعير جعلته منسجج الخف من المشي حتى يرق، فما هو المناسب هنا من هذه المعاني؟

﴿عَنْهَا﴾ هنا قد تستثني العلم بها حيث الصحيح - إذاً - حفي بها،

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

(٣) نور الثقلين ٢: ١٠٦ عن تفسير القمي في الآية أن قريشاً بعثت العاص بن وائل السهمي والنضر بن الحارث من كلدة وعقبة بن أبي معيط إلى نجران ليتعلموا من علماء اليهود مسائل يسألونها رسول الله ﷺ وكان فيها: سلوا محمداً متى يقوم الساعة فإن ادعى العلم فهو كاذب فإن قيام الساعة لم يطلع الله عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا فلما سألوا رسول الله ﷺ متى تقوم الساعة أنزل الله تبارك وتعالى: يسألونك عن الساعة.

(٤) سورة مريم، الآية: ٤٧.

(٥) سورة محمد، الآية: ٣٧.